المدرسة الأندلسية وجهودها في تجديد الدرس النحوي
ابن مضاء القرطبي أنموذجا

Andalusian school and its efforts to renew the grammatical lesson
Ibn al-Qurtubi lit example

1 جمال سنوسي *

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

d.senouci@univ-chlef.dz

2 أد.إسماعيل زغودة

aboufirass84@gmail.com

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

تاريخ الوصول: 2021/05/04 تاريخ القبول: 2021/08/21 تاريخ النشر:2021/11/04

الملخص:

إن النّحو منذ التّأريخ له على يد أبي الأسود الدؤلي وسيبويه وأضرابهما لم يكف المشتغلون به على الانتصار له مرة وانتقاده مرة أخرى، باعتباره قانون اللّغة وميزانها عند المتقدمين، وإرث ترزخ تحته ويعيق تعلّمها وتقدّمها عند المتأخرين ولهذا رأينا كمًا هائلاً من الجهود التّيسيرية والتّبسيطية لتقريبه، وجهود أخرى تجديدية وإحيائية لإعادة بعثه من جديد، وجهود أخرى نقدية قرائية لإعادة قولبته بما يتماشى مع مقتضيات الحداثة اللّغوية ونظرياتها، وقد حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف عند جهود تيسير النحو من الوجهة الدينية من خلال المدرسة الأندلسية ورائدها ابن مضاء القرطبي

الكلمات المفتاحية: تيسير النحو، تجديد النحو، المدارس النحوية، المدرسة الأندلسية، ابن مضاء القرطبي.

Abstract:

The grammar since its history at the hands of Abu Al-Aswad Al-Dawali and Sibawayh and their strikes has not been enough for those who work for him to win and criticize him once again, as it is the law of language and its balance among the applicants, and the legacy of it runs under it and impedes its learning and progress among the late, and for this we have seen a huge amount of facilitating and simplifying efforts to bring it closer Other renewive and revivalist efforts to resurrect him again, and other critical reading efforts to reformulate it in line with the requirements of linguistic modernity and theories, and we have tried through

* المؤلف المرسل

this research paper to stand at efforts to facilitate grammar from the religious point of view through the Andalusian school behind Performed by Ibn Lighted Al-Qurtubi.
Key words: facilitating grammar, grammar renewal, grammar schools, Andalusian school, Ibn Mudhah al-Qurtubi.

1-اتجاهات قراءة النحو:

لقد تعددت القراءات للتراث النحوي منذ عهد ابن مضاء القرطبي وما أسفر عن ذلك من جهود فيما بعد بقيت تحاول جاهدة فتح استغلاق النحو وصعوبته فتعددت الآراء والمشارب ويمكننا تقسيم جهود قراءة النّحو واتّجاهاته في هذا المجال إلى ما يلي:

1-1. اتجاه شعوبي:وهو اتجاه شعبوي ليس له مرتكزات علمية سوى أنّه ضاق ذرعا بقواعد النّحويين وهذا نلمسه حتّى لدى بعض الشّعراء الذين استصعب عليهم ما وضعه النّحاة من حدود وقواعد للكلام عامة و يدخل ضمن هذا الاتّجاه الأعراب الذين ليس لهم مرتكزات علمية إلا البداهة والسّليقة اللّغوية الّتي جُبلوا عليها ويروى في هذا المجال أنّ أعرابيا وقف على حلقة أبي زيد "فظن أبو زيد أنّه جاء ليسأل مسألة في النّحو فقال له أبو زيد: سل يا أعرابي عما بدا لك فقال على البديهة:

لست للنّحو جئتُكُمْ ... لاَ وَلاَ فيه أَرْغَـــبُ
أنَا مالي وَلإمْــرىء ... أبَدَ الدَّهر يُضـــربُ
خلّ زيدًا لشأنـــه ... حَيْث ما شَاء يَذْهَبُ
واسْتَمع قَوْلَ عاشق ... قد شَجاه التَطــرّبُ
هَمُّهُ الدّهرَ طفْلَــةٌ ... فهو فيها يُشبّـــبُ[1]

1-2 اتّجاه لغوي: وهو اتّجاه تيسيري تبسيطي أهله أعلم النّاس بمواقع الكلام أدركوا مبكرًا صعوبة الدّرس النّحوي في تعليم اللّغة وضبطها، فصنفوا فيه المصنفات ونحو بالنّحو واللّغة الوجهة التّعليمية ويراعون في كتبهم أفق المتلقي ومن نماذج اللّغويين الذين أدركوا صعوبة النّحو الجاحظ (ت 255 هـ) ومن ذلك أنه وعى استغلاق كتب أبي الحسن الأخفش فسأله مرة: "أنت أعلم النّاس بالنّحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم".[2]

1-3 اتّجاه ديني: وخير من يمثل هذا الاتّجاه هو ابن مضاء القرطبي ومن سلك سبيله في التّأثر بالمذهب الظاهري، فقاسوا بذلك ما هو ديني على ما هو لغوي واكتفوا بالظاهر من اللّغة بعيدا عن التّأويل والتّقدير والاكتفاء بالأصول وتبرز النّظرة الدّينية في كتاب الردّ على النّحاة لابن مضاء بشكل بَيّن خصوصا في مقدمة كتابه الّتي يعلن فيها غايته من تأليف مصنفه في النّحو ومن ذلك قوله مثلا: "كذلك من أخذ من علم النّحو ما يوصله إلى الغاية المطلوبة منه واستعاض من تلك الظنون التي ليست كظنون الفقه التي نصّبها الشّارع صلى الله عليه وسلم أمارة للأحكام، ولا كظنون الطبّ الّتي جربت وهي الغالب نافعة في الأمراض والآلام ،العلوم الدينية

السّمعية منها والنّظرية الّتي هي الجُنة والهادية إلى الجَنَّة فقد نفعه الله بالتّعليم وهداه إلى صراط مستقيم وأما من اقتصر كلّ الاقتصار على المعارف الّتي لا تدعو إلى جنّة ولا تزجر عن نار كاللّغات والأشعار ودقائق علل النّحو ومتسليات الأخبار فقد أساء الاختيار، واستحب العمى على الإبصار"[3].

1-4 اتجاه لساني: ويمثله جملة من الباحثين الذين اشتغلوا بالدّرس اللّغوي الغربي الحديث متمثلين في جملة من رواد الدّرس اللّساني العربي الذين درس بعضهم في الجامعات الغربية فتأثروا بما وصلت إليه من جهود منهجية في علميّة اللّغة ودراستها وفق نظريات لسانية كشفت المستور عن الكثير من القضايا اللّغوية، هذا جعل بعض اللّسانيين يحدثون إسقاطات منهجية للنّظريات الغربية على الدّرس اللّغوي العربي وخصوصا النّحوي منه فأعادوا قراءة التّراث من زاوية العلمية اللّسانية بعيدا عن كل أشكال التّعصب للغة أو الانتصار لها دون وجه حق، ومنهم من حاول إيجاد أرضية خصبة لهذه النّظريات وفق آراء الأقدمين في نظرهم إلى المسألة اللّغوية عامة رغبة منهم في مواكبة مقتضيات الحداثة والتّقريب بين اللّسانيات الحديثة والتّراث اللّغوي العربي، وإبراز مواطن المعاصرة فيه عن طريق جذب الأصل إلى الفرع والقياس عليه أو إجراء مماثلات ومقارنات وإصدار أحكام وفقها حتى تستبين معالم الحداثة اللّغوية وأسسها النّظرية في كوامن التراث.

2- المدارس النّحوية:

إنّ كلمة مدرسة تعبّر لنا من الوهلة الأولى عن ذلك الرّابط المعنوي والفكري الذي يجمع جماعة من النّاس تحت قبة واحدة، يتدارسون فيها موضوعًا من مواضيع العلم في شتّى المشارب والتّخصصات، ولعلّ ظهور علم النّحو وتطوره دفع بالغيورين على اللّغة العربيّة والقرآن الكريم إلى إيجاد جامع يجمع العلماء والمريدين من تلاميذهم تحت لواء واحد،فنشأت بذلك ما يعرف بالمدارس النّحوية، فهي تعني: "وجود جماعة من النّحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النّحو، ولا بدّ أن يكون هناك الرّائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتّابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ويتبنّون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه"[4]

وإذا جئنا إلى المدارس النّحوية العربيّة الّتي ذاع صيتها وانتشرت بين العامة والخاصة فإنّنا نجد مدرستين عريقتين تنتميان إلى رقعة جغرافية نسبت إليها وسميت باسمها، وهما: البصرة والكوفة، فقد كان "المعيار الجغرافي الأساس الوحيد لهذا التّقسيم، وهذا يوضح لماذا حملت كل مدرسة اسم منطقة"[5] ، واتّفق معظم الدّارسين في تقسيم المدارس النّحوية على أساس جغرافي، إلاّ القلّة القليلة منهم كأحمد مختار عمر حيث يقول: "فنحن لا نوافق على اتخاذ المعيار الجغرافي أساسا لتقسيم العلوم إلى مدارس فكرية مختلفة، لأنّ وجود جماعة من الدّارسين لا يكفي مطلقا لتشكيل مدرسة"[6] .

ويقول سعيد الأفغاني الذي يرفض المعيار الجغرافي أساسًا في تصنيف المدارس النحوية: "درج العلماء على أنّ هناك مذهبًا بصريا وآخر كوفيًا. فما معالم كل من المذهبين؟ هذه الميزات والمعالم ليست جامعة مانعة، فليس هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة، أو قال بها آخرون وعارضها الأولون جميعًا"[7]

ورغم هذا فإنّ اسم "مدرسة" هو الشّائع المتداول عند الدّارسين، ولا يكادون يختلفون فيه، بينما اختلافهم هو في عدد المدارس النّحوية، ونحمل هنا ما أورده شوقي ضيف حيث صنّفها خمس مدارس هي على التّرتيب: البصرية،والكوفية،والبغدادية والأندلسية، والمصرية ولم يذكر فيما ذكر المغربية،وسنعرض فيمايلي شيئا من التّخصيص للمدرسة الأندلسية، ومرتكزاتها في تفسير القواعد والتّأصيل للدّرس النّحوي العربي.

2-1- الأندلس: حين دخل الإسلام الأندلس أقبل أهلها على تعلّم العلوم العربيّة وازدهر هذا مع قيام الدولة الأموية بالأندلس (138هـ- 422هـ) ،ورحل الأندلسيون إلى المشرق رغبة في العلم، وارتحل بعض المشارقة واستقر بالأندلس، ونشأ بهذا طبقة كبيرة من العلماء النّحويين وأول ما عنيوا بالقراءات،" وتوالى علماء الأندلس في الأخذ عن مذاهب البصرة والكوفة وبغداد لكنّهم لم يَخضعوا خضوعًا كاملا للنّحو المشرقي، بل أضافوا إليه ما توصلوا هم إليه[8] "،"ويبدو أنّ الأندلس تأخرت في عنايتها بالنّحو البصري و إنّما صبّت عنايتها أولا بالنّحو الكوفي مقتدية بنحوييها الأول جودي بن عثمان"[9] لكن لم تلبث أن التفتت للنّحو البصري واحتل عندهم كتاب سيبويه الريادة في مجالسهم من حيث الدّرس والشّرح والتّعليق والتّعليل، "وأخذت دراسة النّحو تزدهر في الأندلس منذ عصر ملوك الطوائف، فإذا نحاتها يخالطون جميع النّحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين، وإذا هم ينتهجون نهج الأخيرين من الاختيار من أراء نحاة الكوفة والبصرة،ويضيفون إلى ذلك اختيارات من أراء البغداديين وخاصة أبا علي الفارسي وابن جنّي"[10] .

وإذا تتبعنا المدرسة الأندلسية فإنّنا نجد نوعين من النّحو قد ساد فيها: نحو تقليدي وآخر تجديدي؛فالتّقليدي منه ما التزم فيه النّحاة بمناهج المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية فشرحوا وعلّقوا ودرّسوا والتزموا بما جاء في هذه المدارس فغاب عنهم الاجتهاد والانفراد بالرأي والاستقلالية في النّهج والمذهب، و من بين هؤلاء أوائل النّحاة كجودي بن عثمان (ت 198هـ) وهو "أول من أدخل كتب الكوفيين وأول من صنّف في النّحو"[11] والأفُشنيق محمد بن موسى (ت 307هـ) والذي ولع بكتاب سيبويه وأقرأه لطلابه بقرطبة "وكان دائمًا يضع كتاب سيبويه بين يديه ولايني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه"[12].ومحمد بن يحي الرّباحي (ت 358هـ). والزبيدي محمد بن الحسين (ت 379هـ) صاحب كتاب طبقات النّحويين واللّغويين. وغير هؤلاء كثير ممن تأثروا بالنّحو المشرقي ونسجوا على منواله في التّدريس والإخراج والتّأليف.

وأما النّحو التّجديدي فهو الذي سلك فيه أصحابه منهجًا مخالفا للمدارس الشّرقية ودعا فيه أصحابه إلى نبذ التّقليد والمحاكاة الجافة للدّرس النّحوي القديم وتعويضهما بالاجتهاد، ولعل ابن حزم (ت 456هـ) يعدّ من أوائل دعاة التّجديد النحوي، فقد كان ظاهري المذهب؛أي متأثرًا بالمذهب الظاهري "الذي يأخذ بظاهر النّصوص وينكر التّقليد ويبيح الاجتهاد لمن يقدر على استنباط الأحكام، كما يعود إلى النّصوص أولًا وأخيرًا ولا يبحث في العلة"[13]،وكان من نتائج هذا المذهب أن انفرد بمنهج خاص في النّحو يدعو إلى إنكار التّقليد ويشرّع الاجتهاد في النّحو، ونفس الاتّجاه نلمسه عند ابن مضاء القرطبي (ت 592هـ) الذي شغل الدّارسين بكتابه الردّ على النّحاة فكانت آراؤه في هذا الكتاب من أكثر الآراء تأثيرا في الدّرس النّحوي وتوجيهه الوجهة الأصولية

الفقهية فاصطبغ بذلك النّحو في الأندلس مع هذين العالمين صبغة دينية اجتهادية، فقد "حاولت الأندلس أن لا تدور في فلك البصرة والكوفة حيث نهجت نهجًا مخالفا، وظهرت فيها دراسات حرة تدعو إلى هدم النّحو القديم الموروث عن سيبويه، وبناء نحو جديد يقوم على أوضاع جديدة، فدعوا إلى عدم التّقليد، بل تكون أحكامهم مما يؤديه اجتهادهم وتخليص النّحو من الفروع الكثيرة وحذف ما يستغني عنه، والتنبيه على ما أُجمع على الخطأ فيه"[14]

ويمكن أن نحصر أراء المدرسة الأندلسية وخصوصًا الاتّجاه التّجديدي فيها فيما يلي:

- رفض القياس وما يتصل به من علل .
- الاكتفاء بالظاهر من القرآن والحديث .
- رفض التّقديرات والتّأويلات .
- الاستكثار من رواية الحديث والاستشهاد به .
- الاتّجاه نحو التّبسيط والتّيسير .
- فتح باب الانتقاد والاجتهاد .
- الاتّجاه نحو المتون النّحوية المنظومة .

ولعلّنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن المدرسة الأندلسية تركت فعلا بصمتها في التّأثيل للدرس النّحوي فكرًا واجتهادًا ومنهجًا، ولا أدلّ على ذلك من أن النّحوي ابن مالك (ت 672هـ) صاحب الألفية أندلسي الأصل، والذي سادت ألفيته تدريس النّحو في المشرق نظير قراءته الثّاقبة لجهود الأوائل من النّحاة، والّتي استغلها في "تحرير مباحث النّحو وأبوابه ومصطلحاته وتذليل مشاكله وصعابه"[15].

ويمكننا الجزم أن المدرسة الأندلسية فتحت بابا كان مغلقا، واتجهت نحو النّقد المنهج القائم على إعادة قراءة النّحو من منظور آخر هو المنظور الظاهري، والابتعاد عن الإغراق في القياسات والتعليلات والتأويلات والتّخريجات النّحوية الّتي أثقلت النّحو العربيّ وجعلته مستصعبا على الدّارسين والمدرسين أنفسهم .

2-2- مصر: لقد كانت مصر ذات مكانة مرموقة في عهد الدولة الإسلامية،وخصوصًا الفترة العباسية، فكانت تغصّ بالعلماء والمؤدبين وكان طبيعيا أن تنشط "دراسات النّحو في مصر مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته، مما دفع إلى نشوء طبقة من المؤدبين على غرار ما حدث بالأندلس، كانوا يعلمون الشّباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربيّة حتى يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم"[16]، ونذكر من بين هؤلاء: عبد الرحمن بن هرمز (ت 117هـ) تلميذ أبي الأسود الدؤلي ويعتبر ممن أذاع نقط الإعراب ونقط الإعجام في المصحف وإنّه كان من جلّة القراء، وكان قد أخذ القراءة عن عبد الله بن العباس وأبي هريرة وعنه أخذها نافع مقرئ أهل المدينة"[17]،"غير أنّنا لانجد تأليفا في النّحو بمعناه الحقيقي إلاّ في القرن الثّالث[18]"، وأول نحوي حمل بمصر راية النّحو بمعناه الدقيق ولاد بن محمد التميمي البصري الأصل الناشئ بالفسطاط، وقد رحل إلى العراق فلقي الخليل بن أحمد وأخذ عنه ولازمه وسمع منه الكثير، وعاد إلى مصر ومعه كتبه الّتي استفادها في العربيّة من إملاءات الخليل،وأخذ يحاضر فيها

الطلاب... وكان يعاصره أبو الحسن الأعز الذي تتلمذ على الكسائي، وبذلك اتّصلت الدراسات النّحوية بمصر في زمن مبكر بإمامي المدرستين الكوفية والبصرية"[19]

كما نجد أيضا من النّحويين المتميزين أحمد بن جعفر الدينوري (ت 289هـ) الذي اتّجه صوب البصرة، وأخذ النّحو عن المازني، وبن ولاد بن محمد التميمي (ت 298هـ) وكراع النمل (ت 310هـ)" وقد رحل إلى بغداد وأخذ عن النّحويين البصريين والكوفيين وكان يمزج في مصنفاته بين أرائهما وكان إلى أراء البصريين أميل"[20] ،وأبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد (ت 332هـ) وغيرهم كثير من العلماء النابهين في مجال النّحو، أمّا في عصر المماليك فازدهر الدّرس النّحوي في مصر ازدهارا عظيما بلغ أوجّه من التّأليف وبلغت شهرة مؤلفيه الآفاق نذكر منهم: بهاء الدين بن النحاس(ت 698هـ). والعالم الكبير ابن الحاجب (ت646هـ) صاحب الكافية والشافية في النّحو والصّرف، ثم انبرى للدّرس النّحوي في مصر عالم جليل أصّل للنّحو العربيّ تأصيلا وأعاد قراءته وهو ابن هشام الأنصاري (ت 761هـ). وقد قال عنه ابن خلدون: "ومازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنّه ظهر بمصر عالم بالعربيّة يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه"[21]، وقد تداول على شرح كتبه العديد من النّحاة المصريين وغير المصريين نذكر منهم: الأشموني (ت 929هـ) صاحب شرح الأشموني على ألفية ابن مالك .

وإذا تأملنا جهود علماء المدرسة المصرية فإنّها نحت اتّجاهين: اتّجاه التّقليد واتّجاه آخر عمد إلى قراءة جديدة للنّحو العربيّ واتّجه اتّجاه التّجديد، والاتّجاه التّقليدي هو الغالب لأنّه ضمّ معظم النّحاة الأوائل الذين تبنوا أفكار المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية وأعادوا اجترار النّحو القديم بتبني نهج شيوخه وأئمته، أمّا الاتّجاه التجديدي فكان مع الجيل المتأخر من العلماء الذين جمعوا بين أراء المدارس النّحوية السابقة الذكر،وأبدوا جانب التّجديد في الكثير من المسائل النّحوية فجددوا وابتكروا أراءً نحوية جديدة شرّعت للدّارسين إطلاق اسم المدرسة على علماء مصر النّحويين، والذي أهلهم لذلك هو الاتّجاه أولا و الرقعة الجغرافية ثانيا، وأحسن من يمثل الاتّجاه التّجديدي في المدرسة المصرية هو ابن هشام الأنصاري من خلال مؤلفاته: شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، وقطر النّدى وبلّ الصّدى، والإعراب عن قواعد الإعراب، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وكأنّما بأعماله هذه قد نفخ في جسد النّحو فأحيا بكتبه روحه وصبغ عليه صبغة الاجتهاد؛ لأنّه لم يلتزم مذهبًا نحويًا معينا ولم يأخذ بشكل مطلق بأقوال المدرسة البصرية أو الكوفية أو البغدادية،فقبل من أراء هذه المدارس ما رآه صوابًا ورفض بعض الآراء والأفكار والإخراجات، وأتى بآراء جديدة في المسائل الّتي عالجها "بما أتاحه لها من ملكاته العقلية النادرة، ومن إحاطته بآراء النّحاة السّالفين له على اختلاف مدارسهم وأعصارهم وبلدانهم ومن قدرته البارعة في مناقشة تلك الآراء،مع ما امتاز به من طرافة التّحليل والاستنباط وجمال العرض والأداء"[22] .

2-3 المغرب: كنّا قد أشرنا سابقا أنّ هناك اختلافا في تحديد عدد المدارس النّحوية العربية وكثير من الكتب تسقط المغرب من حساباتها النّحوية، وهناك من وضع شروطًا ينبغي توفرها حتّى يصحّ إطلاق تسمية مدرسة "فليست المدرسة إلا أستاذًا مؤثرًا ،وتلاميذ متأثرين، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض موحد ونهجوا للوصول إليه

منهجًا جديدًا"[23]، غير أن هناك من الدّارسين من ثبّت المدرسة المغربية ومنهم المستشرق "هويل"" الذي أضاف مدرستين أخريين في مصر والمغرب"[24]

وإذا تأملنا المغرب سنجد أنّه لم يخرج عن قاعدة الأندلسيين في احتضان الدّرس النّحوي،وقد عمل على هذا علماء كبار نشروا النّحو واشتغلوا على إيصاله لتلاميذهم ونذكر من بين هؤلاء ابن معطي الزواوي. (ت 563هـ) وابن أجروم، وأبو موسى الجزولي والمكودي وغيرهم ممن عملوا على النّحو في المغرب، وإن كان نحو المغرب لا يختلف عن نحو الأندلسيين بحكم التّمازج الذي كان آنذاك في عهد المرابطين والموحدين، وهذا ما دفع ببعض الدّارسين إلى دمجهم في مدرسة واحدة هي مدرسة الأندلس والمغرب، ولكن في مقابل الدعاوى الداعية إلى إسقاط اسم المدرسة المغربية من المدارس النّحوية هناك من اعترف بصنيع وجميل بعض نحاتها،ممن طبعوا النّحو العربي بشروحهم ومتونهم وحواشيهم وتعليقاتهم على المسائل النّحوية المختلفة، وممن دافع من المحدثين عن مدرسة المغرب وهم قلة قليلة جدًا نجد صالح بلعيد حيث يقول: "المذهب المغربي لا يختلف كثيرًا عن الأندلس، والأندلس أطلق عليها اسم المدرسة فطبيعي أن يطلق هذا المصطلح على الجهود التي قدمت في المغرب، ورأينا أن المدرسة لا تطلق إلاّ على المذهب الذي حاول أن ينظّر أو يخرج عن أنماط البصرة والكوفة، وهذا ما فعلته الأندلس والمغرب وباعتبار أن المغرب تتبع الأندلس في كثير من أرائها إذن تستحق هذا اللقب العلمي وهي جديرة به "المدرسة المغربية"[25]

فالمدرسة الأندلسية والمغربية هي الأخرى شاركت في إعادة قراءة النحو قراءة جديدة،فنظمت المتون النحوية لتسهيل تعليمه على الناشئة والمتعلمين وكل هذه الجهود لم تسهل دربه ولم تلين منهجه واستوعره طلابه، ومن طرائف ما يقال فيه قول دماذ أبو غسان في قصيدة كتبها إلى أبي بكر بن محمد المازني يشكو صعوبة النحو وما لقيه من عسر في فهم بعض أبوابه:

فَكَرْتُ في النَّحو حَتى مَلِلْتُ ... وأَتْعَبتُ نَفْسي لَه والبَـــدَنْ
وأَتْعبتُ بَكْرًا وأَصْحَـــــابَهُ ... بِطُولِ المِسائِلِ في كُلّ فَـــنْ
فَكُنتُ بِظَاهِرِهِ عَـــــالِمًا ... وكُنتُ ببَاطِنِهِ ذا فَطَـــــنْ
خَلاَ أَنَّ بَابًا عَلَيهِ العَـــفَا ... ءُ للفَاءِ يَالَيْتَهُ لَم يَكُـــــنْ
وللواوِ بابٌ إلى جَنْبِـــــهِ ... مِنَ المِقْتِ أَحْسِبهُ قَد لُعِـــنْ
إذا قُلْتُ هَاتُوا: لماذا يُقَـــا ... لُ لَسْتُ بِآتِيكَ أَوْ تَأْتِيـــنْ
أَجِيبُوا لِما قِيلَ هَذا كَـــذَا ... عَلى النَّصبِ؟قَالُوا: لإِضْمَار أَنْ
فَقَدْ كِدْتُ يَابَكْرُ مِن طُولِ مَا ... أُفَكِّرُ في بَابَهِ أَنْ أُجَـــنْ "[26]

ولابد أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أن هؤلاء النّحاة انطلقوا ممّا هو موجود عندهم رغبة في تبسيط النحو وتيسيره، ومالوا إلى مصطلح التّيسير حتى يجعلوا المادة النّحوية طيّعة منقادة لفكر المتعلّمين،ولم يخرجوا عن الإطار

العام للنّحو وأصوله،وبدا مصطلح التّيسير أقرب المصطلحات إلى كتبهم،ولو تتبعنا دلالة العناوين الّتي وَشّحوا بها مصنفاتهم لوجدناها تصبّ في هذا المصبّ قاصدين في ذلك الوجهة التّعليمية الّتي لم تخرج عن المنهج العام كقولهم: الموجز في النّحو المختصر في النّحو، التّفاحة في النحو، المصباح في النّحو، وغير ذلك من المصطلحات الدّالة على السّهولة واللّيونة، ولم يخطر في بالهم أبدا أن يخرجوا عن الأصول الّتي وضعها من سبقهم، فكان الإيجاز والاختصار والشّرح والتّفسير والتّقريب والجمع والتّبسيط والتّهذيب غايتهم؛ ولكن مع رسوخ فكرة الصّعوبة في الأذهان ظهرت دعوات قد خرجت عن ما أَلِفَه النّحاة من القواعد المتعارف عليها، وثاروا ضد منهج القدامى وعابوا عليهم طرقهم في فهم اللّغة وتحليلها، فأنكروا الكثير من المسائل التي كانت تعدّ عندهم من المسلّمات الّتي لا ينبغي المساس بها، ولم تعد تُطرح فكرة التّبسيط عند هؤلاء،بل جاؤوا بمصطلح التّجديد وإعادة قراءة النّحو كبديل لمشكلات النّحو،ويمكن أن نؤرخ لفكرة تجديد النّحو و إعادة قراءته مع بعض نحاة المدرسة الأندلسية،الّتي تعبر بحق عن نظرية نحوية جديدة نادى بها أحد علماء الأندلس وهو ابن مضاء القرطبي في مؤلفه الشّهير "الردّ على النّحاة"، وسنحاول أن نتتبع خيوط نظرية ابن مضاء بشيء من الإيجاز مركزين على أهم مضامينها.

3- ابن مضاء ومنهجه في النّحو:

1- تعريف ابن مضاء:"[27]

هو أبو العباس أحمد بن عبد الرّحمن بن محمد اللّخمي، أصله من قرطبة وإليها ينسب ولد سنة (513هـ) وشهد عصرين من عصور الأندلس هما: عصر المرابطين وعصر الموحدين أخذ عن ابن مالك كتاب سيبويه، وكان ابن مضاء مُقرئًا مجودا، مُحدثا مكثرا عارفا بالطبّ والحساب والهندسة، ولاّه الموحدون قضاء فاس، ثم وَلُّوه قضاء الجماعة واستمر في هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة (592هـ)، وعرف عن ابن مضاء تأثّره بالمذهب الظّاهري،وهو الدّعوة إلى الأخذ بظاهر الكتاب، وترك الاشتغال بالفلسفة والكتب الأربعة والّتي كانت حملة لإحراقها في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، ونبذ فكر مالك الغالب على أهل المغرب والأندلس، وترك الاشتغال بعلم الكلام والرأي، وحمل النّاس على الظّاهر من القرآن والحديث فكانت بذلك ثورة ظاهرية على فقه المشرق، وربّما كان ابن مضاء أحد المؤلبين على هذه الثّورة بحكم منصبه، وبالتّالي حمل حملة خليفته على المذاهب الأربعة فأمر بإتلافها وإحراقها ونادوا برفض القياس وما يتّصل به من علل والاكتفاء بظاهر النّصوص من القرآن والحديث،ونحا ابن مضاء في ثورته لا على الفقه والفقهاء فقط، وإنّما في حملة على النّحو والنّحاة، فألّف ضّد النّحو المشرقي ثلاثة كتب هي على التّوالي "المشرق في النّحو،" وكتاب "تنزيه القرآن عمّا لا يليق بالبيان،"وكتاب "الردّ على النّحاة" وهو ما بقي من آثاره والذي عُني بتحقيقه الدّكتور شوقي ضيف.

4- أسس نظرية ابن مضاء في دعوته إلى تجديد النّحو:

لعلّنا لسنا مبالغين إذا قلنا أن ابن مضاء القرطبي أوّل من دعا إلى تجديد النّحو العربيّ بالتّعرض إلى أصوله ومبادئه، وفق نظرية نحوية جديدة تعد ثورة في الدّرس النّحوي، وكانت منطلقات هذه الثورة وهذا التّجديد دينيا

بحتا، إذ تأثره بالمذهب الظاهري قد وجهه الوجهة الّتي نهجها في كتابه "الردّ على النّحاة"، فقد ضاق بأساليب النّحاة وعقم دراساتهم بسب إيغالهم في التّمسك بنظرية العامل"[28].

ويبدو أن ابن مضاء حاول أن يقيم أسس منهجه الفقهي على النّحو، كما كان النّحاة السابقون يفعلون، فوضع كتابا سمّاه "الردّ على النّحاة"،عالج فيه جملة من مسائل النّحو وأدلى بأراء بالغة الأهمية، نمت على عقل ناضج وذوق رفيع أهّل ابن مضاء لأن يعدّ أول الدعاة فعلا إلى إصلاح الدّرس النّحوي وأول المحاولين ذلك علميا"[29].

وتحديد النحو من الزاوية الدينية واضح بَيِّن من خلال مقدمة ابن مضاء، حيث جاء في بعض فقراتها قوله: "أمّا بعد فإنّه حملني على هذا المكتوب قول الرّسول صلى الله عليه وسلم "الدّين النّصيحة"...،من رأى منكم منكرا فليغيره...وإنّي رأيت النّحويين –رحمة الله عليهم– قد وضعوا صناعة النّحو لحفظ كلام العرب من اللّحن وصيانته من التّغيير...، إلاّ أنّهم التزموا ما لا يلزمهم،وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها ووهنت مبانيها، وانحطّت عن مرتبة الإقناع حجتها حتّى قال شاعر فيها:

تَرنُو بطرفٍ سَاحر فَاتر أضعفَ من حُجة نَحوي"[30]

ويقول أيضا ناقدا ما عند النّحويين من علم النّحو وأنّه خليط من الآراء وكدر من الماء "ومثل هذا المكتوب وكتب النّحويين كمثل رجال ذوي أموال عندهم الياقوت الرّائق والزّبرجد الفائق والذّهب الإبريز، وقد خالطها من الزّجاج الذي صُفيّ حتى ظُن زبرجدا، والنّحاس الذي عولج حتّى حُسب عسجدا...،فأتاح الله لهم رجلا ناصحا وناقدا باصرا، فأظهروه على ما لديهم من تلك الذّخائر النّفسية المونقة،فقال لهم: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدّين النّصيحة) وأنا أنصحكم لا للاقتناء ولا للاكتساب؛ ولكن لابتغاء الأجر من الله والثّواب، هذا الذي اتخذتموه عُدّة للدّهر وظننتموه أمانا من الفقر بعضه مال وبعضه لمع آل"[31].

"فهو إذن يأخذ بأدب السّنة في النّصح للنّحاة أن يعودوا إلى المنهج المستقيم،إذ يراهـــــم ضلّوا وأضلّوا النّاس في وعثاء النّحو وشعابه،وكثرة ما فرّعوا فيه من فروع وأقاموا من حجج وعلل"[32]،حتّى التبس عليهم الأمر،فأخلطوا عملا جيدا وآخرا رديئا،وتاهوا في بيداء الوهم فوعّروا طريق النّحو على متعلّميه وعلى الخائض فيه، حتّى أنّه من يسلك سبل النّحويين وشعابهم يَضل عن سبيل النّحو.

فابن مضاء لم يَبْنِ أسس نظريته النّحوية من فراغ،وإنّما استند في ذلك على معتقده الديني، فقوّض ما بناه غيره من الأصول الّتي تعارف عليها الجميع، ولم يشذ واحد عنها حتّى أنكرها عليهم واعتبرها علّة النّحو وواحدة من مشكلاته، فتعرّض بالنّقد لها وبيان ترهل بنيانها، وتقوم نظرته النّحوية على أسس نذكر منها:

1– إلغاء القول بالعامل: والعامل أصل من أصول النّحو، بل عليه شُيّد وبني واشتدّ عوده حتّى جاء ابن مضاء فدعا إلى إلغاء القول بالعامل وهدّه هدّا،حيث يقول مُفتتحا كتابه: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النّحو ما يستغني النّحوي عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النّصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظي وأنّ الرّفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي،وعَبّروا عن ذلك بعبارات توهم

في قولنا (ضرب زيد عمرا) أنّ الرفع الذي في زيد والنّصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب...وذلك بَيِّنُ الفساد.[33]،ويستدلّ على قوله بقول ابن جنّي في الخصائص"وأمّا في الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرّفع والنّصب والجرّ والجزم إنّما هو للمتكلم نفسه لا شيء غيره".

فابن مضاء يرى بأن العمل للمتكلّم ولا دخل للعامل فيه، كما ردّد ابن جنّي قبله، وكأنّه كان يعلم بما سيؤول إليه الأمر بالقول بالعامل "وأمّا القول بأن الألفاظ يُحدث بعضها بعضا فباطل عقل وشرعا لا يقول به أحد من العقلاء...،فشرط الفاعل أن يكون موجودا حينما يفعل فعله، ولا يحدث الإعراب فيما يحدث فيه إلاّ بعد عدم العامل، فلا ينصب زيد بعد "إنّ" في قولنا (إنّ زيدا) إلاّ بعد عدم إنّ"[34].

"وواضح هنا التّأثير الفلسفي في تعليل ابن مضاء، فهو يعارض نظرية العامل بمثل هذا التّعليل،فيرى أنه لو كانت (إنّ) هي الّتي تُعمل النّصب في الاسم لكان ذلك محالا؛ لأنّك إذا قلت: إنّ زيدا قائم. فإنّك تنطق أولا كلمة (إنّ) وما دمت قد نطقتها أولا فقد انتهت ومضت؛أي دخلت في العدم فكيف يعمل المعدوم في الموجود؟"[35].

وقد رأى ابن مضاء أنّ القول بالعامل يُحرّف الكلام عن مواضعه، فيتصورون ويتوهمون غير الموجود ويمثلونه ويتخيلونه، وهذا يؤدي إلى "تغيير كلام العرب وحطّه عن رتبة البلاغة إلى هجنة العي وإدّعاء النّقصان فيما هو كامل"[36].

وعليه اعترض على التّقديرات والتّأويلات المحذوفة، ليدلّ على مدى فساد نظرية العامل وقد قسّم العوامل الّتي يحذفها النّحاة ثلاثة أقسام:"[37].

1- قسم حُذف لعلم المخاطب به مثل قوله تعالى:" وقيلَ للّذين اتّقوا ماذا أنزل ربّكم قالوا خيرا". يعني أنزل خيرا.

2- قسم حُذف والكلام لا يفتقر إليه مثل (أزيدا ضربته؟). فإنّ النّحاة يقدّرون عاملا محذوفا عمل النّصب في (زيد) وهو عامل يفسره الفعل المذكور على نحو ماهو معروف في باب الاشتغال.

ويرفض ابن مضاء هذا التّأويل الذي جنحوا إليه، والذي لا يمكن للمتكلّم أنه قصد إليه ويفسر ذلك بأنّ هذا من ادعاءات النّحويين التي لا دليل عليها إلاّ ما زعموه، وهذا بناء على أنّ كلّ منصوب لا بدّ له من ناصب.

3- قسم مضمر إذا ظهر تغير مدلول الكلام كقولنا (يا عبد الله). فعبد الله منصوب بفعل مضمر تقديره "أدعو" وهذا إذا أُظهر تغير المعنى وصار النّداء خبرا بعد أن كان إنشاء.

وقد أشار من منطلق هذه المسألة رفضه التّأويل والتّقدير في كتاب الله بزيادة معان فيه من غير حجّة أو دليل، "لأن القول بأنّ كل ما ينصب إنّما ينصب بناصب، والنّاصب لا يكون إلاّ لفظا يدّل على معنى إمّا منطوقا به، وإمّا محذوفا مرادا ومعناه قائم بالنّفس، فالقول بذلك حرام ...،لأنّه لا يزاد في القرآن لفظ غير المجمع على إثباته وزيادة المعنى كزيادة اللّفظ،بل هي أحرى لأنّ المعاني هي المقصودة".[38]

والأمثلة الّتي أوردها في كتابه كثيرة، من ذلك الضّمائر المستترة من مثل: "زيد قام"، إذ أنكر الفاعل الذي يقدره النّحاة في قام، كما أنكر الضّمائر المستترة في المشتقات والأفعال أو متعلقات المجرورات.

ويبرز تأثره بالفكر الظّاهري الذي يرفض الزّيادة ويتعامل مع النّص في ظاهره فدعا بذلك إلى حذف كل ما لا يفيد نطقا فقال: "وممّا يجب أن يُسقط من النّحو الاختلاف فيما لا يفيد نطقا،كاختلافهم في علّة رفع الفاعل ونصب المفعول، وسائر ما اختلفوا فيه من العلل الثّواني وغيرها ممّا لا يفيد نطقا"[39].

"وعلى هذا النَّحو يحاول ابن مضاء أن يبرهن على فساد نظرية العامل، مصورا ما تجرّه من تقديرات وتأويلات لا مبرّر لها،إلاّ التّمحل وكثرة التّخيل، وأنّه لينبغي أن نضرب عنها صفحا وخاصة في آي الذكر،لأنّه لا يوجد عليها دليل يجيز لنا ما يفترضه النّحاة فيها من عوامل محذوفة وضمائر مستترة"[40] .

2- الدّعوة إلغاء العلل الثّواني والثّوالث: رأى ابن مضاء أن القول بالعلل الثّواني والثّوالث من الأشياء التي أفسدت النّحو وأثقلت درسه،والعلل من الأشياء الّتي أُخذت على النّحو منذ وقت الخليل وسيبويه، حتّى أنّ الخليل يقول في هذا الباب: "فإن سنح لغيري علّة لما عللته من النّحو هي أليق ممّا ذكرته بالمعلول فليأت بها".[41] ويقول سيبويه أيضا "وليس" شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها"[42]. ومن هذين القولين يتّضح لنا فتح باب العلل على مصراعيه عند النّحاة، فأقبلوا عليه يبحثون عن العلل، فاعتقدوا أن كل ظاهرة يمكن أن تعلّل، وهذا ما رفضه ابن مضاء وقسّم العلل إلى قسمين: قسم مقبول وهو العلّة الأولى. والآخر مرفوض وهو العلّة الثّانية والثّالثة يقول: "ممّا يجب أن يسقط من النّحو العلل الثّواني والثّوالث وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا: (قام زيد) لم رفع؟. فيقال: لأنّه فاعل وكلّ فاعل مرفوع. فيقول: ولم رفع الفاعل؟. فالصّواب أن يقال له: كذا نطقت به العرب. ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر"[43].

فالعلل الأولى عند ابن مضاء يحصل بها معرفة النّطق بكلام العرب، وهي علل مقبولة أمّا الثّانية فقسّمها إلى ثلاثة أقسام: قسم مقطوع به، وقسم فيه إقناع، وقسم مقطوع بفساده. ومثّل للقسم الأول بالتقاء السّاكنين إذا التقيا فإنّ أحدهما يُحرك؛ لأنّه لا يمكن للنّاطق أن يتوصّل إلى النّطق بهما ساكنين. مثل قوله تعالى "قم اللّيل إلاّ قليلا"؛ وأمّا النّوع الثّاني في قولنا مثلا: أن أصل (ميعاد، وميزان) (مِوعَاد، ومِوزَان) وعلّة إبدال الياء منها وعدم تركها على حالها أن ذلك أخف على اللّسان فهي واضحة لكن يستغنى عنها؛ وأمّا النوع الثّالث فهو تعليلهم إعراب المضارع مثلا فهذه علّة دعا إلى إلغائها لأنّها مقطوع بفسادها.

فابن مضاء أراد تخليص النّحو من العلل وكثرتها، فقبل العلل الأولى فقط ودعا إلى إلغاء الثّانية والثّالثة لأنّها باطلة ولا تفيد معرفتها في شيء، ولا يضرّ الجهل بها، فالعلل الأولى هي علل تعليميّة تحصل بها الفائدة،والعلل الثّواني والثّوالث هي علل قياسية وجدلية تدخلنا في متاهات القول بالذّاتية، ولا مناص عند ابن مضاء من الجهل بها لأنّها لا تحصل بها فائدة تذكر، ولا تعدوا إلاّ أن تكون ترفا فكريا يثقل الدّرس النّحوي أكثر على متعلّميه. "والحق أنّ في النّحو من أمثال هذين النوعين الثّاني والثّالث كثيرا ينبغي أن يتجرد منه حتّى تخف مؤنته ويسهل

أخذه، فأمّا العلّة الأولى فهي التي يهتم بها العلم لأنها في الحقيقة قانون الظاهرة...،أمّا ما وراءها فيخرج عن نطاق العلم...؛لأن صاحبه مستغرق في تفكير عقلي مجرد"[44].

3- الدعوة إلى إلغاء القياس: دعا ابن مضاء إلى إلغاء القياس في النّحو تيمنا بالظاهرية الذين كانوا ينفون القياس؛لأنّه يقوم على أصل وفرع وعلّة وحكم، ومعنى ذلك أنّه يقوم على العلل ويردّ إعرابهم للفعل المضارع لشبّهه بالاسم "أو بعبارة أدّق لقياسه على الاسم، فالاسم أصل في الإعراب والفعل فرع وهي فرعية يأخذها الفعل لعلّتين؛أمّا العلّة الأولى فهي أن يكون شائعا فيتخصص على نحو ما نعرف في الأسماء، فإن كلمة (رجل) تصلح لجميع الرجال، فإذا قلت (الرجل) اختص الاسم بعد أن كان شائعا وهذا نفسه نراه في الفعل المضارع، فإنّ كلمة يذهب تصلح للحال والاستقبال، فإذا قلنا سوف يذهب اختص الفعل بالمستقبل بعد أن كان شائعا،والعلّة الثّانية الّتي يسوقها النّحاة هي أن لام المبتدأ تدخل على المضارع كما تدخل على الاسم فتقول (إنّ زيدا ليقوم) كما نقول (إنّ زيدا لقائم)"[45].

فهذا كلّه مرفوض عند ابن مضاء لأنّه إغراق في التّفسير، فهم ينسبون إلى العرب ما لم تقل به "لأنّهم لايقيسون الشيء على الشيء ويحكمون عليه بحُكمه، إلاّ إذا كانت علّة حكم الأصل موجودة في الفرع"[46]،فالعلّة التي وضعوها في إعراب الأسماء موجودة أيضا في الأفعال فجعلوا الإعراب أصلا في الاسم وفرعا في الفعل المضارع، فقد كان بعض الكوفيين مثلا يرى بأنّ المضارع أصل في الإعراب مثله مثل الاسم، فالعرب في نظر ابن مضاء "أمة حكيمة فكيف تُشبِّه شيئا بشيء،وتحكم عليه بحكمه،وعلّة حكم الأصل غير موجودة في الفرع".[47] كأنّه بهذه المقولة يُخطّئ من بالغ في القياس،ما دام لم يستوف شروطه من أصل وفرع وعلّة وحكم فقاسوا على علل في الأصل غير موجودة في الفرع.

وبالتّالي حملوا على اللّغة أمورا غير موجودة، فقاسوا الأشياء ببعضها قياسا عقليا يقوم على المشابهة دون أن يكون وجه تكامل بين المقيس والمقيس عليه، كما أن هناك سببا لغويا بحتا كون العرب لم تقل بهذا في استعمالاتها اللّغوية وإنّما نسبوه إليها، ويعلّق شوقي ضيف على ذلك قائلا: "والحق أن الإنسان لا يقرأ الصحف الأولى من شرح السّيرافي على كتاب سيبويه حتّى يشك في قيمة كل ما وضعه النّحاة من علل وأقيسة في نحوهم، فليس هناك حرف يدخل على الفعل ولا حركة إلا ويعلّل لذلك وقد يدخله القياس،وكذلك الشّأن في الاسم"[48]، بل يؤيد وجهة نظر ابن مضاء في مايسبّبه هذا القياس وهذه العلل، فيقول: "ويدخل الإنسان في أثناء ذلك في فيضان من الفروض والأوهام...،أرأيت كيف ينتهي ابن مضاء بالنّحو العربيّ؟. إنّه يريد أن يحذف منه كل ما يستغني الإنسان عنه في معرفة نطق العرب بلغتهم وإنّه ليتصور أحوال أواخر الكلم كأحوال أوائله،فهي أحوال لغوية بسيطة لا تحتاج معرفتهاإلى عسر في الفهم ولا إلى بعد في التّأويل، وإنّما عمل النّحو أن يسجل هذه الأحوال وأن يضع القواعد لضبطها دون جنوح إلى أقيسة وعلل يمليها الفرض أو الوهم أو الخيال"[49].

4- الدّعوة إلى إلغاء التّمارين غير العلميّة: وهو من الأسس الّتي بنيت عليها نظرية ابن مضاء في تجديد النّحو، وهو إسقاط التّمارين غير العملية وخصوصا الصّرفية منها التي أثقلت النّحو بعلل وأقيسة لا فائدة ترجى من ورائها

سوى إجهاد النّفس والعقل في البحث عنها، لذلك وجب تخليص النّحو منها حتى يسهل على متعلّميه. وضرب ابن مضاء مثالا يبين فيه عبث النّحاة في هذه المسائل الخلافية المتعلقة بالتّمارين غير العلميّة الّتي يفترضها بعضهم للدربة فيقول: "وممّا ينبغي أن يسقط من النّحو (ابن من كذا مثال كذا) كقولهم (ابن من البيع) مثال (فُعْل) فيقول قائل: (بوع) أصله بُيْع فيبدل من الياء واوا لانضمام ما قبلها؛ لأنّ النّطق بها ثقيل كما قالت العرب مُوقن ومُوسر أصل موقن مَيْقن..."[50].

ويبين ابن مضاء حجة كل من الفريقين في مثل هذه المسائل التي لم تقدم للنّحو شيئا وإنّما شغلت النّحاة للتّوسع فيها حتى دأبوا على التّمارين غير العلمية الّتي لا تمت بصلة للعلم وشغلتهم عن حقيقة النّحو وغايته، فجبلوا أنفسهم على التّمارين الّتي ليست من كلام العرب ولا من استعمالاتها والّتي أحالت النّحو ألغازا يصعب فهمها، وهذا نوع واحد من التّمارين الّتي لا تستند لأسس علمية" فكيف إذا أكثر من هذا الفن، وطال فيه النّزاع وامتدت إليه أطناب القول مع قلة جداه وعدم الافتقار إليه،والنّاس عاجزون عن حفظ اللّغة الفصيحة الصحيحة فكيف بهذا المظنون المستغنى عنه."[51]

وهكذا يريد ابن مضاء أن يريحنا من كلّ ما يعدل بنا عن صيغ اللّغة إلى ظنون النّحاة في عبارات لا نستخدمها، وألفاظ يمتحن بها بعضهم بعضا، وهي لا تجري في كلام العرب؛ وإنّما تجري في ألسنة النّحاة كي يضيفوا إلى النّحو كلّ ما يمكن من مشقة وتصعيب."[52] .

هذه بعض أسس نظرية ابن مضاء في تجديد النّحو،ولا نظنّ واحدا قال بما قاله إلاّ بعض النّتف من هنا وهناك تحاول جاهدة فتح استغلاقه،"وينبغي أن لا يفهم أن ابن مضاء دعا إلى إلغاء النّحو العربيّ،فالنّحو العربي أكثر ثباتا واستقرارا من أن يلغيه...؛بل كل ما أراد هو تخليصه من عنت هذه النّظريات الّتي لم يكسب منها إلاّ فنونا من العسر والمشقّة،حتى أصبح كثير من مسائله لا يفهم إلاّ بعد أن يجدّد للنّاس الفهم مرارا وتكرارا"[53].

وأخير يمكننا أن نقول:

* تيسير النحو انطلق في مرحلة مبكرة مع جهود عدد من النحاة حاولوا تيسير النحو على الناشئة والمتعلمين.

* المعيار الجغرافي كان من أهم المرتكزات في تقسيم المدارس النحوية فسميت كل مدرسة باسم رقعة جغرافية ومنها المدرسة الأندلسية.

* تعد المدرسة الأندلسية الأولى نظريا وتطبيقيا من حيث الجهود في تيسير النحو .

* اكتفت المدرسة الأندلسية بالظاهر من القرآن والحديث ورفضت التقديرات والتأويلات.

* فتحت المدرسة الأندلسية باب الاجتهاد والنقد فألفت في النحو المتون التعليمية ولعل ألفية ابن مالك خير دليل لجهود هذا العالم الأندلسي المولد المشرقي النشأة.

* لم يخرج علماء النحو عن مفهوم التيسير حتى جاء ابن مضاء الذي دعا إلى التجديد لذلك كان سابقة في علم النحو وذلك في كتابه الرد على النحاة.

* مصطلح التجديد يعتبر بديلا لمشكلات النحو لذلك يمكن اعتبار جهود ابن مضاء القرطبي نظرية متكاملة الجوانب حاول فيها 'يجاد بديل عن طريق أسس منهجه الفقهي الظاهري الديني وقياسه على النحو.

* جهود ابن مضاء القرطبي تعتبر أو الجهود العلمية في إصلاح الدرس النحوي ولو أن نظريته لم يكتب لها الانتشار خارج أسوار الأندلس .

* يعتبر ابن مضاء أول من هدم نظرية العامل ونظرية القياس التي شيدا عليها النحو واللغة ورأى كل ذلك من باب التوهم والتحامل على العربية وكلام العرب.

الهوامش:

[1]– أبو سعيد السّيرافي، أخبار النّحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،مصر ط1، 1955 ص42،43.

[2]–الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر: كتاب الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،، ط2، 1965، ج1،ص91، 92.

[3]– ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف،دار المعارف القاهرة مصر،1947، ص73، 74.

[4] – أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب للنشر، القاهرة، ط6، 1988، ص: 128 .

[5] – المرجع نفسه ، ص: 129 .

[6] – المرجع نفسه، ص: 128 .

[7] – المرجع نفسه، ص: 134 .

[8] – ينظر: عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية،دار النهضة العربية بيروت 1980 ص: 216 .

[9] – ، شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1968ص: 289 .

[10] – المرجع نفسه، ص: 292 .

[11] – المرجع نفسه، ص: 289 .

[12] – المرجع نفسه، ص: 289 .

[13] – صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط ، دت ص: 164 .

[14] – عبد الكريم بكري، ابن مضاء موقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1982، ص: 125 .

[15] – شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 317 .

[16] – شوقي ضيف، المدارس النحوية ، ص: 327 .

[17] – المرجع نفسه، ص: 327 .

[18] – عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 249 .

[19] – شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 327، 328 .

[20] – المرجع نفسه، ص: 329 .

[21] – ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،صيدا بيروت، د.ط، 1991، ص: 8.

[22] – شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 7، 8 .

[23]– مهدي المخرزمي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، دار الرائد العربي، بيروت، ط6، 1986، ص: 106

[24] – أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 135 .

[25] – صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ص: 179 .

[26]– السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي ،مطبعة مصطفى البابي ص:60.

[27]– ينظر: ابن مضاء القرطبي: كتاب الرّد على النحاة، تح: شوقي ضيف، ص:18، 19.

[28]– رشيد عبد الرحمان العبيدي، عبد الحسين محمد الفتلي، طارق عبد عون الجنابي، تاريخ العربية،دار الكتب للطباعة دط،دت، ص: 57.

[29]– علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه،الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان ط1، 2003، ص: 388.

[30]– عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 222.

[31]–– عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 222، 223.

[32]– ابن مضاء القرطبي، الردّ على النحاة، تح:شوقي ضيف ،ص:24.

[33]– المرجع نفسه ، ص: 76.

[34]– المرجع نفسه، ص: 77، 78.

[35]– عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص: 227.

[36]– ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف، ص: 78.

[37]– المرجع نفسه، ص: 79.

[38]– المرجع نفسه، ص: 81،82.

[39]– المرجع نفسه، ص: 141.

[40]– المرجع نفسه، ص: 31.

[41]– أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علّل النحو ،تح،مازن المبارك ،دار النفائس ،بيروت لبنان، ط3، ص: 66.

[42]– سيبويه، الكتاب تح:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي القاهرة،ط1988،3ج1، ص:32.

[43]– ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف،ص:130 .

[44]– ابن مضاء: الرّد على النّحاة، دراسة وتح: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، بنغازي ليبيا، ط1، 1979،ص: 39،40.

[45]– ابن مضاء القرطبي، كتاب الرّد على النحاة، تح: شوقي ضيف، ص: 39.

[46]– ابن مضاء القرطبي، كتاب الرّد على النحاة، تح: شوقي ضيف، ص: 135.

[47]– المرجع نفسه ، ص:135.

[48]– المرجع نفسه، ص: 41.

[49]– المرجع نفسه، ص:42.

[50]– المرجع نفسه، ص: 138.

[51]– ابن مضاء القرطبي، الردّ على النحاة، تح:شوقي ضيف، ص: 140.

[52]– المرجع نفسه، ص: 44.

[53]– المرجع نفسه ،ص:45، 46.

قائمة المراجع والمصادر:

1. أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علّل النحو ،تح،مازن المبارك ،دار النفائس ،بيروت لبنان، ط3.
2. أبو سعيد السّيرافي، أخبار النّحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،مصر ط1، 1955.
3. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب للنشر، القاهرة، ط6، 1988.
4. الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر: كتاب الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،، ط2، 1965، ج1.

5. رشيد عبد الرحمان العبيدي، عبد الحسين محمد الفتلي، طارق عبد عون الجنابي، تاريخ العربية،دار الكتب للطباعة دط،دت.
6. سيبويه، الكتاب تح:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي القاهرة، ط3، 1988 ج1.
7. السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي ،مطبعة مصطفى البابي.
8. شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1968.
9. صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط ، دت.
10. عبد الكريم بكري، ابن مضاء موقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1982.
11. عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية،دار النهضة العربية بيروت 1980.
12. علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه،الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان ط1، 2003.
13. ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف،دار المعارف القاهرة مصر،1947.
14. ابن مضاء: الرّد على النّحاة، دراسة وتح: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، بنغازي ليبيا، ط1، 1979.
15. مهدي المخرزمي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، دار الرائد العربي، بيروت، ط6، 1986.
16. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،صيدا بيروت، د.ط، 1991.